

مُقَدِّمَةٌ

يدور هذا الكتاب حول الإبداع بوصفه أعدل الأشياء قسمة بين البشر! فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة، وإمكانات تتواصل بغير انتهاء، وبمواهب شتى، وبخيال خصب، بيد أن هذه القدرات، وتلك المواهب وهذه الإمكانيات تظل خبيثة طى النفس، تحتاج لمن يخرجها من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق فى الواقع.

وهذا التحقق مشروط بنسق تعليمى متميز، يتجاوز حدود الحفظ والتلقين والاتباع واستظهار المعلومات، إلى الفهم والتأويل وإنتاج المعرفة والإبداع؛ وبيئة ثقافية محفزة على الإبداع، وإمكانات اقتصادية مهيئة للإبداع، ومساعدة على تفجير الطاقات الكامنة، ومجتمع يشجع على الإبداع ويقيم وزنا للموهبة والقدرة والإمكانية.

ولعل القاسم المشترك فى عالم الإنسان يكمن فى الإبداع، فالإبداع فىنا، هو نحن، هو الإنسان بما هو إنسان، والاختلاف ليس فى جوهر الإبداع. ولكن فى درجته، التى لا تتحقق إلا من خلال الإيمان بأن الإنسان إمكانية مفتوحة تنطوى على وجود إنسانى يتجلى فى ثراء نفسى وعقلى ممتلئ، مفعم بالإمكانات والقدرات، وأن العقل الإنسانى واحد، ومن ثم فحضارة الإنسان واحدة، بيد أن ثقافته متعددة.

والعقل قادر على الرحيل والسكن حيث تكون البيئة مخصصة للإبداع
ومحفزة له، ولهذا تغيرت مواقع الحضارة من مكان إلى مكان، ومن موقع
إلى آخر، تغيراً لم يكن للفروق الجينية فيه أى دخل.

يقول ماينارد سميث: إن الفرق الجيني لم يكن مسئولاً لا عن تفوق
العرب فى الأبحاث العلمية بالمقارنة مع أوروبا قبل ألف عام، ولا عن
انقلاب هذا الوضع.

وفى عصر سمته الأساسية أنه عصر العلم والتكنولوجى، يصبح
الإبداع مطلباً لا مناص منه، لمن أراد أن يجد لنفسه موقعا متميزاً على
خريطة عالم يتقدم من خلال وثبات علمية كيفية تتجاوز كل قدرة على
التنبؤ.

والإبداع فى صميمه تجاوز للمألوف، وهذا التجاوز لا يتحقق إلا من
خلال مسأيرة التيارات الكوكبية التى تنشغل - فى كثير من الأحيان -
بتعليم الطفل، باعتباره حجر الزاوية فى المجتمع الكوكبى الجديد،
حيث الأطفال فيه هم قادة المستقبل فى إحداث التغيير المطلوب.

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليمه وتدريبه على إنتاج المعرفة، بدلاً
من تدريبه على أن يكون مستهلكاً للمعرفة.

وانتاج المعرفة يحتاج إلى إطلاق العنان لخيال أطفالنا، وقد أصاب
أنشتين عندما قال: (العلم ثمرة للخيال)، وما نظرية النسبية إلا نتاجاً
لخيال خصب ممتلئ بالقدرة والإمكانية.

وعندما نسمح لأطفالنا بالدهشة، التي هي جوهر الإبداع، ولا نقهر في داخلهم روح التساؤل، ولا نضع حدوداً لتمشيمهم المعرفي، ولا نُحبط في داخلهم أي نزوع صوب البحث والتنقيب والاستكشاف.

عندما نفعل ذلك، نكون قد بدأنا بوضع الجذور الجينية لجيل بمقدوره أن يحدث التغيير الإبداعي المطلوب.

ويحتاج الإبداع إلى مناخ علمي يقوم على التسامح، حيث تعدد الآراء أمر مشروع، فلا توجد إجابة واحدة صحيحة ومطلقة، ولا أنموذج فكري راسخ لا يمكن تغييره، ولا تفكير قطعي صارم لا بديل عنه، فكل حجة لها حجة مضادة، وكل سؤال من الممكن أن يتحول إلى إشكالية تستلزم حلولاً متعددة.

ومن شأن ذلك، ضرورة إعادة النظر في نظام الامتحانات الذي يقوم على الأنموذج الواحد، والرؤية الواحدة، والمعنى الواحد، وبقدر مسايرة التلميذ وخضوعه المطلق للمقرر الدراسي، يكون نجاحه وتفوقه.

فالتفوق عندنا معناه عدم الخروج عن النص، عن الإجابة الواحدة، ومعناه أيضاً أن تكون مجموعة المتفوقين نسخة (كربونية) واحدة، بغير إضافة أو تجديد الأمر الذي أدى إلى تفشي الدروس الخصوصية على نحو غير مسبوق.

ولعل ذلك من الأسباب التي أدت إلى إقامة المؤتمر القومي للموهوبين، تحت رعاية السيدة سوزان مبارك، قرينة السيد رئيس الجمهورية،

والذى يمثل وعياً قومياً بأن الإبداع هو الحل لتحديات القرن الحادى والعشرين، وأن الموجبة تفرد فى الإمكانيات الإنسانية تستوجب الحرص والعناية، وأن السعى لتوفير الفرص والإمكانيات والمناخ الاجتماعى والبيئة الثقافية المنفتحة على العالم بغير انغلاق، والمسكة بقيم روحية وثقافية بغير تطرف، هو البداية الحقيقية للالتحام بعصر المعرفة فيه قوة وثروة ووجود.

والله من وراء القصد

محمد إبراهيم عيد

أغسطس ٢٠٠٠